قصة قصيرة مترجمة

قصة: الثورة

قصة لـ"المنشئ بريم تشاند *
ترجمة: د. قمر شعبان**

ذات صباح، كان منزل الطاكور درشان سينغ في هرج ومرج، والليلة هي ليلة خسوف القمر، مافتئ الطاكور متعودا على زيارة نهر الكنج مع زوجته العجوز في يوم مثله، و المنزل كله منغمس في تجهيزاته الصاخبة والطارئة، كانت كنةٌ تخيط قميصه الممزَّق، وكنته الأخرى تفكر في تصليح عمامته، والبنتان كلتاهما مشغولتان في تحضير الفطور الذي كان من أكثر الأعمال متعة، وأما الأطفال فلقد كانوا أثاروا الفوضى والشغب كالعادة، لأنهم في كل مناسبات الغدوة والروحة متحمسون في آمالهم وأمانيهم؛ عند الغدوة يصرخون للذهاب معهم، وعند الروحة يتصاخبون على تقسيم الحلوى، والعجوز هي التي كانت تراودهم وتسليهم، وتُقنع كنائنها خلال ذلك؛ ألا! لا تخرجن من البيت من دون إذن، ولا تمسكن السكين، والفأس، والمنجل بأيديكن، أحذِّركُنَّ بشدةٍ، تُطعن أمري أو لا تطعن؟ ومن يبالي منكن بأمري!؟، ولا تتجرع إحداكن حتى قطرة واحدة من الماء، نحن في أيام الجدب والمجاعة، إذا ورد ناسك متسول على الباب فلا تنهرنه ولا ترفضنه. سمعت الكنائن كل ذلك، ولكنهن لم يسمعن جيدا؛ كن منتظرات أن يغادر الحمو والحماة في أسرع ما يمكن، فإن الشهر شهر الشتاء، ثار شوقهن للإنشاد؛ فاليوم يوم الطرب .

رغم أن الطاكور شيخ كبير، ولكن الضعف لم يتطرق إلى قلبه، كان يعتز بأنه لم يمض عليه كسوف أو خسوف إلا وقد تمتع بالاغتسال في ماء الكنج، كانت جدارته العلمية مذهلة جدا؛ يتكهن بالكسوف والخسوف والأيام المناسبة للاحتفالات والمهرجانات بمجرد رؤية الورقات قبل شهور. ومكانته لدى أصحاب القرية لم تكن أكثر من الباندت المتكهن ولكنه لم تكن أقل من ذلك أيضا، لقد كان عمل في شبابه أياما في خدمة الجيش؛ فلا زالت حماسته باقية حتى الآن، لا يجرؤ أحد أن يراه محدقا، فإنه كان لقن أحد الخدم درسا لا نظير له فيما بين عشرات القرى المجاورة، إلى جانب ذلك، أنه حتى الآن مقدام في الأعمال الحماسية، ويثير هممَه كلُّ المستحيل، ومتى ما سكتت الألسن في

---

* قاص هندي شهير

** أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بنارس الهندوسية، فارانسي، الهند – q.shaban82@gmail.com

قضية يزمجر الطاكور كالأسد، وإذا ورد ضابط الشرطة إلى القرية فالسيد الطاكور هو الرجل المغوار الوحيد الذي كان يجسر على مواجهته، ولم تكن مآثره في المناقشات العلمية قليلة، والكهنة المتخاصمون يخافونه دائما، وبالجملة، إن ثقته بالنفس وكبرياءه هما اللتان تجعلانه يحتل مكانة الصدارة والرئاسة في كل حفلة، ومما يعيبه أنه يعظم نفسه ومعجب بنفسه؛ كالمؤلف الذي يشيد بتأليفه بنفسه .

فلما انطلق الطاكور وزوجته العجوز من القرية عند الظهر، كان معهما مئات الناس، ولما بلغوا الطريق العام؛ لقد كان الطريق مكتظا بالزوار الذين خرجوا من بيوتهم أفواجا؛ كأن أسواقا مزدحمة من الناس قد انفتحت على الطريق، فيما بينهم الشيوخ والعجائز مشاة راجلين على عِصيِّهم أو راكبين محفات، (بلغوا من السن كأنهم موتى) فلم يفكر ملك الموت في رؤيتهم قط، وأما العُميُ فهم يخطون خطاهم معولين على عصي غيرهم؛ ومنهم من يحملون أمهاتهم العجائز المسنات على ظهورهم. وعلى رؤوس بعضهم كومة من القماش، وبعضهم يحملون الأباريق على أكتافهم، والبعض الآخر الحبال. وكم منهم ربط الخِرَقَ بالأرجل؛ أنى لهم أن يجدوا الأحذية والنعال! ولكن ببركة الحماسة الدينية؛ قلوبهم طاهرة من الأرجاس والكدورة؛ لهم وجوه نضرة، يتحاورون فيما بينهم بشفاه باسمة، وفيمابينهم نساء يغنين بنشاط ورغبة:

يا مالك الشمس والقمر

يا مجيب الدعوات

يا مالك، يا رب العلمين

كان يبدو أن نهرا للبشر، يجري مع الجداول والقنوات ليلتقي بالبحر.

لما بلغوا ضفة نهر الكنج، كان الوقت وقت اصفرار الشمس. ولكن لم يكن هناك مكان فارغ إلى مسافة أميال لتوضع فيه حبة خردل. وهذا المشهد الشامخ كان يثير في القلوب رهبةً قويةً للحب والتبجيل، وتترننن الأصداء:"اعل الكنج، اعل الكنج". وقلوب الزوار تفيض ولَهاً مثل هذا النهر المتلاطم الفياض. والنهر ذاك؛ ومياهه المتموجة الخضراء المُروِية للعطش، وآمال البائسين، ورب الخيرات والبركات، والنبع الطاهر المزكى، وملجأ البشر، نهر الكنج ذاك، كان يتهلل بشرا، ويتبسم طربا. هل كل ذلك لفخره الزائد بمكانته في قلوب العامة، أو كان يرقص طربا لأنه كان يعانق حجيجه

المتولهين الذين وردوه أفواجا من كل فج عميق ليشهدوا منافع له. هل يمكن ثناء البُردة المزركشة التي زينتها الشمس بالنجوم المتلألئة، وزخرفت ضفافه بالزهور الملونة الخلابة المتحركة.؟

لا زالت ساعات باقية في الخسوف، والناس يتجولون هنا وهناك، وعلى جانب آخر، المشعوذون منغمسون في شعاويذهم، وباعة الأقراص المهضمة متشدقون بالكلام المعجز البليغ، وبعضهم مجتمعون لمشاهدة سفن الموجات المتلاطمة، خرج السيد الطاكور أيضا مع رفاقه متجددا الهواء، لم تطب نفسه السامية أن يشارك في هذه الهوايات السوقية، إذ بدا له عن كثب سرادق فسيح الأطراف، الأغلبية الشاهقة للمشاركين فيه هم المثقفون، ترك الطاكور رفاقه في ناحية، وتربع على الفرش تحت السرادق، كان يعتقد جيدا أن رفاقه الريفيين سوف يغتبطون برؤيته في هذه الحفلة، كما كان يؤمن بأن يجد فيها نقاطا تفيده في جعل محبيه معجبين بنباهته الشاملة .

هذه حفلة أخلاقية تَجمَّع فيها حوالي ألفين وخمس مئة شخص، منصتين إلى خطيب حلو البيان؛ الأغلب من المتنوقين والعصريين جالسون في الصفوف الأمامية، ولم تكن لهم فرصة أفضل من هذا للنجوى والتهامس، وكم من رجل أنيق الملابس من الطبقة العليا يتجهم أصحاب الملابس المتخشنة يجلسون بجنبه لأنهم من الطبقة السفلى، كانت الخطبة لحد ما ممتعة، وجدية أكثر من هزلية؛ فقلما يصفقون للخطيب.

صرح الخطيب أثناء خطبته:

"أحبتي! هذا واجبنا نحن! ولا واجب أهم، وأجدى، وأبرك من هذا الواجب للأمة والوطن، نُقر بأن سلوكياتهم، وأخلاقهم مؤسفة للغاية. ولكن لابد أن نعترف بأن ذلك فقط من أجلنا نحن المثقفين!، فمن ذا الذي يكون مسؤولا عن وضعهم المدني المخزي، ما عدا نحن؟ ولا يمكن علاج ذلك إلا أن نطهر نفوسنا من البغضاء والزراية اللتين تنمان في قلوبنا تجاههم تطهيرا كليا، نعلم أن ذلك ليس بيسير، فإن الحبر المثبت منذ آلاف السنين لا يمكن شطبه بسهولة، فإن الذين، بتنا كارهين ظلالهم، وعاملناهم معاملة أذل من الحيوان، لابد من الإيثار والعزيمة والتواضع ونكران الذات في التعامل والتعانق معهم؛ الإيثار الذي كان يتحلى به الرب كريشنا، والعزيمة التي كان يتسم بها الإله راما، ونكران الذات الذي كان يتخلق به رب الروح ورب البقر، لا أقول لكم أن تتقربوا إليهم بقرابة الزواج، وتتجالسوا معهم في الأكل والشرب، ولكن هلا يمكنكم أن تتعاملوا معهم بالمواساة والإنسانية والخلق

الكريم، كما تتعاملون مع عامة البشر؟ هل هذا حقا أمر مستحيل؟ أما رأيتم قط التبشيريين المسيحيين؟ آه! عندما أرى مداما حسناء متدللة ومتأنقة تحتضن طفلا أسود فاحما مجذوما باثر الجلد ملطخا بالدماء والقاذورة، ثم تُقبِّل ذلك الطفل بحب ودلال معانقةً إياه، فتطيب نفسي، ويخطر ببالي أن أضع رأسي على قدمي هذه السيدة الكريمة. لا أستطيع أن أرى دناءتي وتقصيري وشري في الكاذب وتعصبي بكل وضوح. ما أنعم هؤلاء السيدات في حياتهن! وما أسعدهن في عيشهن! وأكثر بهن في الثروة ورغد العيش! وأمتع بهن في الحب والكرامة ومواساة الأعزة ومواخاتهم! ثم مدى حبهن للأوطان التي ينحدرن منها! هؤلاء السيدات الكريمات لقد آثرن العمل الخيري، والخدمة المخلصة الصادقة على حياتهن الباذخة المترفة، ونِعَمِ الدنيا كلها التي يمتلكنها! فإنهن يسعدن بممارسة كل هذه التضحيات الملاكية! فهلا نستطيع أن نعامل إخوتنا المنبوذين بالمواساة فقط؟ فهل نحن حقا، متثبطون، حُمقٌ، قساةُ القلب لهذا الحد؟ اعقلوا جيدا، إنكم لا ترأفون بهم، ولا تمنون عليهم، ولا ذاك السماح والفضل، بل هذه مسألة حياتكم، فيا أيها الإخوة والأصدقاء! هيَّا بنا مساء هذه المناسبة على ضفة نهر الكنج الطاهر، في مدينة كاشي المقدسة نتعاهد من أعماق قلوبنا على أن نتعامل مع المنبوذين منذ اليوم بالمواخاة، ونشاركهم في احتفالياتهم، وندعوهم إلى احتفالياتنا، ونتعانق معهم ويتعانقون معنا، ونفرح لأفراحهم، ونتألم لآلامهم، ولسوف نحافظ على هذا التعاهد مهما كانت الظروف، ومهما نواجه من الطعن، والسخرية، والاستهجان، وفيكم مئات الشباب الحماسيين الذين يملكون ناصية البيان، وهم مصممون في عزائمهم وهممهم؛ فمن يتعاهد على ذلك؟ فمن يمثل هذه القيمة الأخلاقية الجريئة؟ ليقف على مكانه هاتفا مناديا: "أنا الذي أتعاهد على ذلك، وأبقى ثابتا ومتمسكا به ما دمت حيا."

لقد كانت الشمس غربت في كنف الكنج الذي كان يزهو طربا وكبرياء، ويباهي لونه الهائج المائج ألوان الدنيا كلها، ويتحدى بريقه بريق الذهب والفضة، وطبق صمت رهيب كل الجوانب والأطراف. لقد ذهبت دلالات الخطبة البليغة الملتهبة ورناتها أدراج الرياح؛ فيما بين الأمواج الهائلة للكنج، والمباني الشامخة الناطحة للسحاب للمعابد الهندوسيه؛ تبسم الكنج تبسم يأس أمومي متين، وخضعت الآلهة رؤوسها تأسفا؛ من دون أن تنبس ببنت شفة .

لقد ذهبت الأصداء المرتفعة للخطيب الراهب سدى، ولكنها لم تستطع أن تتطرق إلى قلب واحد من هذا الجمع الكبير، ولم يكن فيهم الفدائيون الوطنيون في عدد قليل، بل الآلاف من لاعبي أدوار الأبطال المسرحيين، والشباب الأذكياء للكليات، والإعلاميين المستميتين باسم الوطن، وأعضاء الأحزاب الوطنية وأمنائها ورؤسائها، وكبار التجار الركع السجد للإله راما والرب كريشنا، والأساتذة الطماحين المتطلعين، والإداريين المحظوظين بقراءة الأنباء التنموية الوطنية في الصحف والجرائد كانوا متوافرين فيما بينهم؛ فيهم جنود مجندة للمحامين المتزركشين بالأزياء الأنيقة، والنظارات الذهبية في وجوههم الممتلئة؛ ولكن لم يذب حتى قلب واحد على هذه الخطبة النارية الملتهبة للراهب المتبتل، لأن قلوبهم قاسية متحجرة، لا تلين ولا تتألم، تشتهي ولكنها لا تعمل. لها الأماني كالأطفال، ولكنها فارغة جوفاء عن العزيمة الثابتة للرجال .

ساد على الجمع صمت مطبق، كل فرد منهم غارق مطاطئ الرأس في أعماق الفكر والاحتيال، يندى لهم جبين الإنسانية، ومفتضحة عيونهم بالخزي والاستياء، رغم أنها هي تلك الرؤوس التي كانت ترقص طربا في سمعة الوطن، و تفيض دموعا بفخر الوطن حينا من الدهر، ولكن شتان ما بين القول وتطبيقه، والبدء وختامه، لم يجرؤ حتى فرد واحد في هذا الجمع الحاشد العظيم على أن يتلفظ كلمة واحدة، سكتت الألسن المنطلقة كالمقراض هيبةً لهذه المسؤولية العظيمة .

كان الطاكور درشان سينغ يتفرس في كل هذه المشاهد جالسا من مكانه بكل رغبة ودقة، مهما كانت معتقداته الدينية؛ ضعيفة كانت أو قوية، ولكنها لم يعالج القضايا الاجتماعية والمدنية أمثالها قط، ولا يعتمد في أمثال هذه الظروف المعقَّدة الوعرة على ذكائه، وقوة انتقاده، وتمييزه. إن الدلائل المنطقية أيضا تنهزم أمامه في مثل هذه القضية، ولم يكن له إلا أن يتبع نساء بيته في هذه القضايا الاجتماعية، رغم اعتراضه في بعض منها، كانت هذه القضية قضية نسائية، فلم يكن له أن يتدخل فيها خوف اندلاع الفوضى في النظام الأسري.

ولو انتقده أصدقاؤه الحماسيون النشطاء على هذا الضعف لرد عليهم: "أيها الإخوان! هذه قضية النساء، هن يفعلن ما يطيب لهن، وليس لي أن أتدخل فيهن". وبالجملة، يتثبط حماسه

العسكري في مثل هذه القضايا التي هي بمثابة واد يفقد فيه الإنسان وعيه، ويُضطر إلى التقليد الأعمى .

ولكن الطاكور رغم كل هذه العراقيل، لم يستطع أن يتمالك نفسه، وفي مثل هذه الظروف تبلغ هممه عنان السماء، فإن المسؤولية الثقيلة التي لا يطيق أحد أن يحملها، إنه هو ذاك الرجل الذي يتحملها بكل روحانية، تثور ثائرته في هذه الظروف ضد المصالح الذاتية والعاقبة النهائية، وذلك كله ليس لنيل السمعة والاسم الجميل؛ بل لطبيعته التي فطرت عليها قريحته ورغبته، وإلا لكان من المستحيل جدا أن يتجرأ فلاح ريفي أن يحرك لسانه في هذه الحفلة المتنورة بالعلم والحضارة، والمتزخرفة بألوان ملونة من أصحاب الفكر والثقافة، والملابس القشيبة، والنظارات الذهبية، التي تنبع فيها المهابة من أناقة الأزياء، ويتجلى فيها الوقار من بطانة الأبدان ورشاقه الأجسام. شاهد الطاكور هذا المشهد بتمعن ورغبة، فأحس في نفسه بدغدغة، وجرت في عروقه دماء الحماسة والحيوية، فوقف على مكانه، وهتف بكل رجولية هتافا: "إنني أنا المتعاهد على ذلك، ولأكونَنَّ ثابتا عليه ما دمت حيا" .

وما إن سمعه الناس، انتبهت إليه ألوف العيون في حيرة واستعجاب، يا له من زي يرتديه: معطف فضفاض من الكتان، وإزار أبيض يرتفع إلى ركبتيه، وعمامة مثقلة ملتوية فوق الرأس، ومنديل طويل على الكتف، وصُرَّة ثقيلة للتنبول، شخصية مغمورة بالوقار والهيبة والهدوء، تتفجر من مقلتي عينيه الضيقتين العنجهية والخيلاء، ولم يبق في قلبه بعد الآن وزن لهذا الحشد الشامخ، كان رجلا أرستقراطيا أرثو ذكسيا من العصر القديم؛ إن كان يعبد الحجر فكان يخاف الحجر عينه، لم يكن له الصوم وسيلة للرعاية الصحية، ولم يكن له نهر الكنج مجرد نبع للمياه الصافية العذبة، إن لم يكن في معتقده تحضر وتنور وتيقظ، ولكنه لم يكن معتقدا مرتابا، رجل يلتزم بالأخلاق، ويحافظ على العمل، معتمد على الطقوس والمكافات، ولا سيما على التقوى التي هي أكبر قوة للتزكية ومعرفة الرب. واحترام الثوب الزعفراني كان من عقيدته ودينه، كان الراهب يملك القدرة الحيوية الكامنة لاستسلام روحه، وهذه القدرة التي أثرت فيه تأثيرا، ولكن استعجاب الحشد الكبير على تعاهده بات مهزلة لهم، وطفقوا يتهامسون فيما بينهم: "يا له من سفيه بليد! أني لريفي مسكين أن يستمع إلى خطبة مثلها قط؛ فجاشت قريحته، وفاض قلبه، فمن ذا الذي لا يدري أن

هدف خطب أمثالها ليس إلا التفرج والاستمتاع، يحضرها عشرات الرجال، جالسين متوحدين مجتمعين، ويسمعون ما يسمعون، ويثرثرون فيما بينهم، ويرجعون إلى منازلهم، لا يتعاهدون على شيء، ولا يقسمون بالله للعمل .

ولكن الراهب اليائس القانت ظل قلقا متأملا: يا للأسف! إن الوطن الذي نوره حالك وديجوري لهذا الحد، يستحيل أن تشع الأنوار فيه، إني لأفضِّل الجهالة على هذا النور الحالك الميت، الذي لا روح فيه، فإن الجهالة تحمل في طيها الأناقة والصفاء والعزيمة، ولاغشاء على قلبه ولسانه، ولا خلاف بين ما يقول وبين ما يعمل، أليس من المؤسف جدا، أن العلم مطاطئ الرأس أمام الجهالة، وفيما بين هذا الحشد العظيم لا يوجد إلا رجل واحد يحمل في داخله قلوب الرجال، وإنه إن لم يدّعِ التيقظ والتنور؛ ولكنني أقدر على أن أضحِّي آلاف المتيقظين المتحضرين على رجل واحد مثله .

نزل الخطيب الراهب من المنصة، وعانق درشان سينغ مهنئا إياه، ومباركا له: "ثبت الرب أقدامك على هذا التعاهد."

..... ❖❖❖❖❖ .....